منهج الأمم السابقة في التعامل مع دعوة الأنبياء والمرسلين في القرآن الكريم (الأنواع والمقومات)

المثنى عبد الفتاح محمود
قسم الثقافة الإسلامية - كلية التربية - جامعة جازان

المُلخّص

تناول البحث قضية مهمة من قضايا القرآن المتصلة بقصصه الحكيم، وهذه القضية تتمثل في منهج الأمم السابقة في التعامل مع دعوة الأنبياء والمرسلين، ومقومات تلك المناهج التي مارسوها، ومن خلال هذه القضية الهامة التي تثير القارئ وتوقفه على حقائق القرآن الواضحة، وفائدة البحث هي استنباط منهج القرآن في التعامل مع الأمم، وكيف الطريق لطرح قاعدة فقه الأولويات وفقه الموازنات وفقه المرحلة، بما يكون عوناً على الوصول إلى منهج الإسلام المتميز بوسطيته وتسامحه، وقد خلص الباحث إلى أن الأمم السابقة قد سلكت ثلاثة مناهج في تعاملها مع دعوة الأنبياء والمرسلين، وهي المنهج البدائي، والمنهج الشوري، والمنهج الاستبدادي، وكان بيان هذا كله في المبحث الأول، أما المبحث الثاني فقد تناول الباحث فيه المقومات التي اعتمدتها الأمم السابقة في وقوفها في وجه الدعوة النبوية عموماً، وجاء في ستة مطالب وهي: المقومات العقدية والسياسية والاجتماعية والأمنية والمادية والأخلاقية، ثم كانت خاتمة البحث، وهو بحث يعطي استنارة في معرفة طرق التعامل مع من يقف في وجه الدعوة الإسلامية بمثل تلك المناهج، وهو يعطي الأولوية لحقائق التاريخ القرآني في تسديد الخطى، ورفع التهم والشبهات عن كل ما يحيق بالتاريخ الإسلامي للأنبياء والمرسلين، ويوقفنا كذلك على أخلاق الأنبياء الحقيقية التي تمثل موقف الأمة كما يريد خالقها سبحانه وتعالى، نسأله سبحانه أن يرزقنا الفهم والسداد، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

الكلمات المفتاحية: التفسير، قصص القرآن، الأنبياء، الأمم السابقة، بيان القرآن.

مُقدّمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ، وبعد؛ فإن فكرة هذا البحث تتلخص في استثارة الآيات القرآنية واستنطاقها لمعرفة منهج الأمم السابقة في التعامل مع دعوة الأنبياء والمرسلين، وكيف عالج القرآن نظرة المسلم لتلك المناهج عند الأمم السابقة، وما هي أنواع مناهج تلك الأمم في التعامل مع دعوة الأنبياء والمرسلين، وكيف أبرز القرآن مقومات تلك الأمم في الوقوف في وجه الدعوة عموماً، وكيف طرح منظومة القيم الحضارية المرتبطة بنهضة الأمم السابقة وموقفه منها.

وتنبع أهمية هذا البحث من كونه يُثري الأطروحة القرآنية حول الرأي السديد ممن يقف موقفاً يشابه تلك المناهج، وكيفية التعامل معه، من خلال الإفادة من تاريخ الأمم السابقة كما جاء في الطرح القرآني، بما يكون عوناً للمسلم المعاصر على فهم التجارب السابقة برؤية قرآنية وتوجيه قرآني، وما في ذلك من مساهمة في سبيل نشر الوعي بالقرآن على المستوى الفكري والدعوي، كل ذلك استجابة لقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾[النساء:٨٢]؛ ولذلك فإن الذي يعنينا أولاً وأخيراً؛ هو الوقوف على تلك المحطات القرآنية التي تشرح لنا الواقع الحقيقي لمسيرة الإنسان في طريق تحقيق مسيرته الحضارية، ضمن ما تسعى له المجتمعات البشرية على اختلاف أشكالها وألوانها وأديانها، والذي نؤمن به وندين لله به، أن القرآن لم يترك صغيرة ولا كبيرة فيما يخص نظرة المسلم تجاه الأمم الأخرى إلا وأجاب عنها فيما يخدم قضيته الاستخلافية التعبدية، التي كان لأجلها

البريد الإلكتروني : almuthnna100@yahoo.com
ردمد : ١٦٥٨-٦٠٥٠

الإنسان في هذه الحياة.

والذي نعنيه في هذا البحث من الأمم السابقة هو: الأمم التي تحدث عنها القرآن من غير الأمة المهدية، فهي تلك الأمم التي تصدت لدعوة الأنبياء والمرسلين، ونتج عن هذا التصدي البقاء على الكفر والشرك، كما هو بالنسبة لمعظم الأمم السابقة، أو الدخول في دين الله تعالى كما كان الحال مع ملكة سبأ وقومها، والذي دعاني لهذه الدراسة مجموعة من الأهداف؛ وهي:

أولاً: المعرفة الدقيقة لمنهج الأمم السابقة في التعامل مع دعوة الأنبياء والمرسلين.

ثانياً: معرفة أنواع مناهج تلك الأمم في التعامل مع الدعوات النبوية.

ثالثاً: الوقوف على مقومات الأمم السابقة التي تصدت من خلالها لدعوة الأنبياء والمرسلين.

رابعاً: معرفة أسباب إخفاق تلك الأمم في الاستجابة الصحيحة التي تقود للهدى والخير.

خامساً: إعادة النظر في مسيرة الأمة اليوم في الوصول إلى موقف واضح صحيح من خلال الاقتداء بدعوة الأنبياء والمرسلين.

وقد جاء هذا البحث في مقدمة ومبحثين وتسعة مطالب وخاتمة، احتوى المبحث الأول على أنواع مناهج الأمم السابقة في موقفها من دعوة الأنبياء والمرسلين، مما أثمر ثلاثة مطالب تُمثِّلُ أنواع مناهج تلك الأمم، وهي المنهج البدائي والشوري والاستبدادي، بينما احتوى المبحث الثاني على مقومات تلك الأمم في التصدي لدعوة الأنبياء والمرسلين، مما أفرز ستة مطالب، وهي المقومات العقدية والسياسية والاجتماعية والأمنية والمادية والأخلاقية، ثم كانت خاتمة البحث، أسأله سبحانه أن يقينا الزلل، ويبعدنا عن الفتن، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

المبحث الأول: أنواع مناهج الأمم السابقة في التعامل مع دعوة الأنبياء والمرسلين:

من خلال دراسة الآيات القرآنية المتحدثة عن الأمم السابقة، نجد أن لتلك الأمم مناهج متعددة في التعامل مع دعوة الأنبياء والمرسلين، فمن تلك المناهج المنهج البدائي، والمنهج الشوري، والمنهج الاستبدادي، وسأتحدث عنها في ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: المنهج البدائي:

وهو المنهج المرتبط بالانتصار للآلهة المزعومة، بقطع النظر عن صحة الطرح الجديد من عدم ذلك، فهم يأبونه ويرفضونه لمجرد الرفض، وكان هذا الشكل واضحاً في قوم إبراهيم عليه السلام، ويبين هذا المنهج درجة البدائية وانعدام العلم والمعرفة بطرق الحوار والنقاش للوصول إلى الغاية المرجوة، وقد كان لهذا المنهج مجموعة من المعالم تتمثل في النقاط الآتية:

١- تقليد الآباء عن عماية في عبادة الأصنام وترك الاستدلال الصحيح (ابن عادل : ١٤١٨هـ)، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء:٥٣]، وقال: ﴿ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [الشعراء:٧٤].

٢- العكوف على عبادة الأصنام دون بيانٍ لتلك العبادة أو تعليل[1]، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴾ [الأنبياء:٥١-٥٢]، وقال: ﴿ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴾ [الشعراء:٧١].

٣- عدم القدرة على مناقشة حجج الخصم (ابن كثير : ١٤١٤هـ)، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء:٦٤-٦٧].

٤- اللجوء إلى أسلوب التهديد بالقتل والتحريق

(١) وقد رأينا الجاهليين في زمن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قد عللوا عبادة الأصنام - وإن كانوا كاذبين في دعواهم -، فقال تعالى: {.. وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ..} [الزمر:٣]، فالفرق واضح بين القومين، فقوم إبراهيم يعبدون لأجل التقليد لا غير، والجاهليون لأجل التقليد والتقرب إلى الله، وهي علة واضحة وسبب فكري بين، فيه مجال للأخذ والعطاء، وإن كانا في ذاتهما فاسدين باطلين لبطلان وسيلة التقرب إلى الله، والعبرة في ذلك هو أن الجاهليين ولجوا دائرة الحوار الفكري بخلاف قوم إبراهيم عليه السلام.

انتصاراً للآلهة بعد العجز عن الرد الفكري (ابن عادل: ١٤١٨هـ)، يقول تعالى على لسان والد إبراهيم: ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ [مريم:٤٦]، وعلى لسان قومه: ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء:٦٨]، وقال: ﴿ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الصافات:٩٧].

يتبين لنا من هذه المعالم أن قوم إبراهيم كانوا على درجةٍ من البدائية والسطحية في التعامل مع المخالف، فهم لا يمتلكون الحجج للحوار والنقاش؛ ولأجل ذلك فإن القرآن لم يذكر لهم مقوماتٍ في التصدي لدعوة الأنبياء والمرسلين سوى هذا الأسلوب المادي القديم، وهو يدل على أن منهجهم في الانتصار لآلهتهم بدائي غير متطور، وفي قول إبراهيم عليه السلام: ﴿ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ[٢] ﴾ [الشعراء:٧٦] دليل على ذلك، وفيه بيان لطول الزمان الذي عاش فيه هؤلاء، وبالتالي فإن إمكانية التغيير مع وجود هذه الطبيعة البدائية لهو من الصعوبة بمكان، وهذا ما يزيد إيماننا بأبينا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ويزيد من تفهمنا لحقيقة تصدي قومه لدعوته، وما عاناه عيه السلام مع أولئك البدائيين في موقفهم من الدعوة الإسلامية.

المطلب الثاني: المنهج الشوري:

وهو ما وقفته بعض الأمم السابقة من دعوة الأنبياء والمرسلين، في اعتمادها قاعدة التشاور وتقبل الرأي الآخر كمنهج عام في التعايش، وقد كان لهذا الشكل الشوري عدة معالم نستطيع أن نلخصها في النقاط الآتية:

١- اعتماد قاعدة التشاور بين الحاكم والأمة التي يمثلها الملأ في معظم أمور الحياة.

٢- قام التشاور على هدف واضح وهو الوصول إلى نتيجة تؤدي إلى المصلحة العامة المبتغاة.

٣- الرجوع إلى أهل الخبرة والعلم فيما يخص الأمور المتشاور فيها، ويشهد لهذه النقاط الثلاث قوله تعالى: ﴿ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾[النمل:٣٢].

٤- إحقاق الحق ونصرة المظلوم وإنصافه.

٥- تحقيق التعايش السلمي بأمثل صوره، ويمثل هاتين النقطتين ما حصل ليوسف عليه السلام مع الملك، في نصرته وتعيينه على خزائن الدولة.

من خلال بيان القرآن نجد أنه قد تحدث عن صورتين أوجدهما الشكل الشوري، وهما صورة التعايش السلمي، وصورة الاستجابة لدعوة الحق والهدى:

الصورة الأولى: صورة التعايش السلمي: وخير مثال على ذلك قصة يوسف عليه السلام، فمع الاختلاف الديني؛ فإننا نجد أن هذا المجتمع الذي اعتمد الشورى شكلاً من أشكال الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، قد حقق أمثل صور التعايش السلمي، وترسخت فيه قواعد العدل، تمثل ذلك في:

١- إخراج يوسف عليه السلام من السجن إنصافاً له، وتقديراً لعلمه وأمانته.

٢- اعتماد التعبير الذي قدمه يوسف عليه السلام، باعتباره حلاً اقتصادياً يعم خيره الأمة.

٣- تعيين يوسف عليه السلام على مالية الدولة (الغزالي : ١٤٢٣هـ)؛ لتحقيق المقصد في إنقاذ الناس مما سيقعون فيه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف:٥٤-٥٦].

٤- تقبل الدولة الشورية مسلماً يحكم بما يوافق دينه؛ ولذلك فإن يوسف عليه السلام رفض أن يحكم على أخيه حكم الملك لاختلاف الدين، ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [يوسف:٧٦]؛ ولأن حكم الملك[٣] لا يحقق مقصوده من استبقاء أخيه عنده.

إذن تمثل هذه الصورة علاقة المسلم الضعيف بالحضارات القائمة على الشورى[٤]، بقطع النظر عن

(٢) فلم يقل مثلاً: الأسبقون، أو السابقون، مما يدل على أن القدم مقصود لذاته، فهم ضاربون في القدم على هذه العبادة.

(٣) كان حكم الملك في السارق أن يضرب ويغرم مثلي ما سرق، وهذا ما لا يريده يوسف عليه السلام، (النيسابوري : ١٤١٦هـ).

(٤) يقول محمد رشيد رضا: «كان يوسف – عليه السلام – يكتفي منه بما كان

نظرتها العقدية؛ فإن الذي يصب في مصلحة الأمة الإسلامية هو الارتقاء الحضاري من خلال الانتفاع بالآخر، حواراً وتعايشاً دون أن يخدش بالمسلمات الثابتة.

الصورة الثانية: صورة الدخول في دين الله: وخير مثال عليها قصة ملكة سبأ(٥)، ونجملها فيما يلي:

١- اعتماد قاعدة التشاور مع الملأ قبل إصدار القرار، ﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ(٦) ﴾ [النمل:٣٢]، وهذا دليل الحرية في إبداء الآراء مع المستشارين.

٢- التفكير في الحل الأمثل الذي فيه خير الناس قبل استخدام القوة مع توافرها، ﴿ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ [النمل:٣٣]، وهذا دليل استقلالية اتخاذ القرار.

٣- اختبار القرار الذي سيصدر قبل إصداره لمعرفة مدى صحته من عدمها(٧)، ﴿ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ [النمل:٣٥]، وهذا دليل صدق الأداة.

٤- الرجوع إلى الحق والهدى بعد رؤية البينات والدلائل وعدم المكابرة، ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [النمل:٤٤]، وهذا دليل صدق المقصد.

تمثل هذه الصورة علاقة المسلم القوي بالحضارات القائمة على الشورى والعدل، وكيفية إدخالها في دين الله تعالى؛ لتحقيق معاني الرحمة التي أرادها الله سبحانه وتعالى من خلال التعامل بين الحضارة الإسلامية والحضارات الأخرى، بما يصب في مصلحة البشرية عموماً.

المطلب الثالث: المنهج الاستبدادي:

وهو منهج معظم الأمم التي قامت على استبداد المخالفين لها بجميع المقومات التي تمتلكها انتصاراً للوجود والبقاء، وإلغاءً للمخالف، سواءٌ أكان على خير أم غير ذلك، والفرق بين هذا المنهج والمنهج البدائي أن المنهج الاستبدادي خطوة متقدمة على المنهج البدائي، فأصحاب المنهج البدائي يرفضون دون حوار أو نقاش، والرفض عندهم هو الأصل، أما أصحاب المنهج الاستبدادي فنجدهم يرفضون بعد حوار ونقاش، كما سنرى ذلك في كثير من الأمثلة القرآنية، وقد بين القرآن هذا الشكل على مدار الآيات المتحدثة عن صراع الأنبياء مع أقوامهم، وأستطيع أن ألخص معالم هذا المنهج في النقاط الآتية:

أولاً: الجدال بالباطل لإرغام الخصم على التسليم بالأمر الواقع، كما **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ [هود:٨٧].

ثانياً: إلغاء الآخر وتهميش دوره في المجتمع الذي يعيش فيه، كما **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾[الأعراف:٦٦].

ثالثاً: توجيه التهم والتحريض على أصحاب الدعوة الجديدة، كما **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ [الأعراف:١٠٩-١١٠].

رابعاً: التهديد بالنفي والقتل كأسلوب أمني يحافظ على المستبدين مما يهدد بقاءهم، كما **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [إبراهيم:١٣]، وقوله: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ

خير قدوة فيه كما علم من قصته في بيت وزير البلاد، وفي السجن، ثم في إدارته لأمور الملك، وكان يقرهم على سائر شريعتهم كما سيأتي في احتياله على أخذ أخيه الشقيق بمقتضى شريعتهم الإسرائيلية بقول الله تعالى: {ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك}»، (تفسير المنار:١٣٧٣هـ).

(٥) يقول البقاعي: «هذه القصة المؤسسة على العلم المشيد بالحكمة، المنبئة عن أن المدعوين فيها أطبقوا على الاستسلام للدخول في الإسلام، مع أبالة الملك ورئاسة العز، والقهر على يد غريب عنهم، بعيد منهم»، (البقاعي :١٤١٥هـ).

(٦) يقول ابن عاشور: «تؤذن بأن ذلك دأبها وعادتها معهم، فكانت عاقلة حكيمة مستشيرة، لا تخاطر بالاستبداد بمصالح قومها، ولا تعرض ملكها لمهاوي أخطاء المستبدين»، (ابن عاشور : ١٤٢٠هـ).

(٧) ولذلك فإنه ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه نقل خبراً عن ملكة سبأ أنها قالت: «أُرسل إليه بهدية؛ فإن قبلها فهو ملك أقاتله، وإن ردها تابعته فهو نبي»، (السيوطي : ١٤١٣هـ).

أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾ [الأعراف:١٢٧].

خامساً: اللجوء إلى القتل إن أخفق الجدال والاتهام والتهميش والتهديد، كما قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [الأعراف:١٤١].

سادساً: ادعاء الألوهية والربوبية وكسر المعتقدات السائدة لقطع السبيل أمام المخالفين، كما قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ [القصص:٣٨]، ﴿ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾[النازعات:٢٤].

هذا وقد بين القرآن مقومات المنهج الاستبدادي من خلال مجموعة من الأقوام، وعلى رأسها فرعون، ثم يليه عاد فثمود، ثم قوم نوح، وسنقف في المبحث الثاني مع أهم مقومات الأمم السابقة، التي سيكون فيها بيان واضح للشكل الاستبدادي.

وفي هذا المبحث وجدنا أن القرآن بين ثلاثة مواقف للأمم السابقة، وهي المنهج البدائي والشوري والاستبدادي، وكيف أن المنهج البدائي لم يقم على مقومات فكرية أو سياسية أو اقتصادية، وإنما قام على مقومات مادية، اعتمد أسلوب القتل والتعذيب في الانتصار للآلهة.

وكيف أن الشكل الشوري قام على مجموعة من المقومات الفكرية والحوارية والسياسية بل المادية، وكيف أن الشورى قادت إلى الطريق الصحيح السليم في غالب الأحيان، وتعرفنا إلى الشكل الاستبدادي بشكل مجمل وسنتزيد من معرفته في المبحث الثاني.

والاطلاع على هذه المناهج يزيدنا رسوخاً بأن منهج القرآن الفريد في التعامل مع الأمم الأخرى يجب أن يكون تحت قاعدة ﴿ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ﴾، وأن الأمم مختلفة في مشاربها وأصولها، فليس المخالف مرفوضاً لأنه مخالف فحسب، وإنما المرفوض هو المعتدي كما تمثل ذلك في المنهجين البدائي والاستبدادي، أما من خالفنا دون اعتداء فذلك له منهج آخر في التعامل الحضاري.

* * *

المبحث الثاني:
مقومات الأمم السابقة:

المقصود بمقومات الأمم السابقة مقومات الوجود والبقاء، وهي المقومات التي أوجدت تلك الأمم وأعانتها على الاستمرار فيما كانت عليه، وهي ذاتها المقومات التي ساعدت تلك الأمم في التصدي لدعوة الأنبياء والمرسلين، وبالتالي تكشف لنا هذه المقومات الأسباب الحقيقية والعلل الجوهرية وراء وقوف الأمم السابقة – وعلى رأسها الأمم الاستبدادية – من الدعوة النبوية فيما بَيَّن القرآن، وسيكون حديثي عن تلك المقومات التي أفاض القرآن في بيانها، وتأتي في ستة مطالب، وهي المقومات العقدية، والسياسية، والأمنية، والاجتماعية، والمادية، والأخلاقية، وهي كما يلي:

المطلب الأول: المقومات العقدية:

لكل أمة من الأمم السابقة عقيدة تعتمد عليها في التصدي للعقائد الأخرى، وهنا تكون العقيدة قد أخذت شكلاً من أشكال التلاعب المؤيد للقلة المستبدة، فالعقيدة تابعة لا متبوعة، ومن هذه الزاوية انطلق القرآن في بيان زيف عقائد الأمم السابقة وتفاهتها عند أصحابها، وتتمثل المقومات العقدية لدى الأمم السابقة في النقاط الآتية:

أولاً: إثبات قوة الآلهة، وذلك كي يكون لها وجود عملي ومُقنع لمن يعبدها من الناس، فاتهمت عادٌ نبيَّ الله هوداً بأن الجنون وفساد العقل قد أصابه بسبب شتمه الآلهة (الرازي : ١٤٢١هـ): ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾[هود:٥٤].

ثانياً: إثبات القداسة لما كان عليه الآباء. إبطالاً للعقيدة الأخرى بإظهار تمسكهم الزائف بعبادة معبودات آبائهم؛ كما جاء على لسان عاد: ﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [الأعراف:٧٠]، وكما جاء على لسان ثمود: ﴿ قَالُوا۟

يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ[٨] أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ [هود:٦٢]، وكما جاء على لسان عموم الأقوام الذين تصدوا للدعوة: ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ [إبراهيم:١٠]، وفي ذلك من التحدي والعناد على عبادة آلهة الآباء، ليكون لهم قدم كذب وثبات في مواجهة العقيدة الجديدة.

ثالثاً: فصل العقيدة عن شؤون الحياة الأخرى، فالعقيدة لا تؤثر على الأمم السابقة ما دامت بعيدة عن المصالح الخاصة للقلة الحاكمة، وهذا واضح تمام الوضوح في قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ [هود:٨٧]، وفي هذا الخطاب من السخرية والاستهزاء ما يدل على عظيم استهجانهم دعوة شعيب عليه السلام[٩]، فكيف يدعوهم لصلاةٍ تنهاهم عن عبادة آلهة الآباء؟ وتأمرهم بتنظيم جديد للنظام المالي الفاسد؟ هذا ما تأباه مصالح القوم الخاصة، فوجب فصل الصلاة عن الحياة.

رابعاً: ادعاء الألوهية والربوبية إن لزم الأمر في مواجهة أي عقيدة تؤثر على الوجود، كما كان من فرعون عندما بلغ مرحلة متقدمة من استخفاف قومه في ادعائه ما ادعى[١٠]: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ [القصص:٣٨]، ﴿ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾[النازعات:٢٤].

ومما يبرهن على أن العقيدة في نظر تلك الأمم لا تخرج عن كونها قاعدة وجود واستقرار سياسي، تستخدم للمراوغة وإفحام الخصم، أنه عندما كان يصيب تلك الأقوام رجزٌ يُظهرون قناعاتهم الحقيقية في عقيدتهم الفاسدة، كما كان الحال مع قوم فرعون: ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾[الأعراف:١٣٤-١٣٥]، وهذا ما حصل مع فرعون نفسه عند موته: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس:٩٠]، وهو ما يؤكد أن المقومات العقدية عند الأمم السابقة هي مقومات وجود وبقاء لا مقومات اعتقاد.

المطلب الثاني:
المقومات السياسية:

المقصود بالمقومات السياسية هي تلك المقومات التي تستخدمها الأقلية المستبدة الحاكمة في تحقيق أمنها ووجودها، وإسكات الجماهير العامة، ومحاولة إقناعهم بأي وسيلة تحقق مصلحة تلك الفئة، وقد بين القرآن ذلك بتوجيه الأنظار نحو حقيقة تغفل عنها العامة أو تتغافلها، وهي أن الأقلية الحاكمة التي أطلق القرآن عليها مصطلح «الملأ»، تحاول جاهدة إخفاء الحقائق تزويراً وتكذيباً وتهميشاً، على أنها ضعيفة في الوقت نفسه على مواجهة الحق إن أراد الناس ذلك، فهي من حيث إنها قوية في المراوغة ضعيفة في المواجهة، وما دامت المراوغة مرتفعاً صوتها؛ فإن المواجهة فاترةٌ بفتور نار استسلام

(٨) يعني: كنا نرجو أن ترجع إلى ديننا قبل أن تدعونا إلى دين غير دين آبائنا، (السمرقندي : بدون تاريخ)، وقد كان استنكار ثمود لأمرين اثنين: الأول: نهي صالح عليه السلام عبادة ما عليه الآباء، الثاني: شكهم في أصل دعوته، وهاتان ذريعتان للتخلص من الدعوة، وذلك بإظهار القداسة للآلهة التي عليها الآباء، والتشكيك في الدعوة، وبهما كان الرفض مبرراً أمام الناس؛ لأنهم يريدون أن يكون الخطاب مُقنعاً للناس من حيث مبررات الرفض.

(٩) يقول أبو السعود: «قالوا بطريق الاستهزاء: أصلاتك التي هي من نتائج الوسوسة وأفاعيل المجانين، تأمرك بأن نترك عبادة الأوثان التي توارثناها أباً عن جد»، (أبو السعود : ١٣٢٧هـ).

(١٠) وهذا يدل على أن ملأ فرعون عندما استنكروا على موسى عليه السلام دعوته فإنهم أثاروا فرعون بقولهم: {وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ} [الأعراف:١٢٧]، وقد ذهب المفسرون مذاهب متعددة في توجيه معنى الآلهة، فقالوا: ويذرك وعبادتك، ومنهم من ذهب إلى أن المقصود من الآية ظاهرها، وهو أنه كان لفرعون آلهة يعبدها، وهو مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما والحسن (الطبري : ١٤٢٠هـ)، والأصل أن نأخذ بظاهر الآية، ما لم يرد ما يمنع من حملها على ظاهرها، وأما توجيهها مع الآيات التي يدعي فيها فرعون أنه إله؛ فهي تدل على تناقضه واضطرابه في دعواه، وتدل كذلك على أن العقيدة تابعة لا متبوعة عنده وعند قومه.

أصحابها، هذا ما أراد القرآن بيانه من خلال محاورات الأنبياء مع أقوامهم عموماً، وما كان لكليم الله موسى عليه السلام مع فرعون وملئه خصوصاً، ونستطيع فهم هذه المقومات من خلال ما يلي:

١- توجيه التهم لتشويه صورة الأنبياء والمصلحين: فمن ذلك ما جاء على لسان قوم نوح: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأعراف:٦٠]، ونجد المنهج نفسه مع عاد: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [الأعراف:٦٦]، وهو ما صدر عن فرعون في خطابه لموسى عليه السلام: ﴿ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴾ [الإسراء:١٠١].

٢- تحريض الحاكم على القتل والإبادة، وهذا ما كان من فرعون عندما استجاب لملئه: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾ [الأعراف:١٢٧].

٣- تأثير الملأ في الجماهير لإفسادهم والصد عن الدعوة؛ كما جاء على لسان صالح عليه السلام: ﴿ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ[11] ﴾[الشعراء:١٥١-١٥٢].

٤- اتخاذ التمسك بعقيدة الآباء حجة؛ لصرف الأنظار عن الغاية التي لأجلها تُقاوم الدعوة الجديدة؛ كما كان من ملأ فرعون: ﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا[12] عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾[يونس:٧٨]، والذي يدل على كذبهم في دعواهم قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ [القصص:٣٨]، وقوله: ﴿ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات:٢٤] فلو كانت عقيدة الآباء هي المقصود لما سكت الملأ عمن ينتهكها صراحة وهو فرعون، إذن ليست آلهة الآباء، وإنما الخوف من أن تكون الكبرياء في الأرض لموسى عليه السلام وقومه.

٥- توجيه الحاكم من قبل الفئة المتنفذة، ومما يلفت النظر أن الآيات التي تحدثت عن الأنبياء السابقين كنوح وهود وصالح عليهم السلام، لم يرد في أيٍّ منها ذكرٌ للحاكم؛ لأن الملأ هم الحكام الحقيقيون، وأحياناً يكون الحاكم متسلطاً والملأ تابعين له، خصوصاً إذا كان يلبي احتياجاتهم ورغباتهم كما كان الأمر عند فرعون: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ [هود:٩٦-٩٧]، ولذلك فإن القرآن كان يذكر فرعون وملأه من حيث منتهى بعثة موسى عليه السلام قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف:١٠٣]، وقال: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [يونس:٧٥]، وقال: ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴾ [المؤمنون:٤٦]، وهذا يدل على أن الملأ لهم وجود وحضور واستشارة من قبل فرعون[13]، وأنها في حقيقتها وجوهرها علاقة تبادلية، لا كما يُظن أن فرعون مستبدٌ بالسلطة وحده، وهو ما يترجم لنا دور الملأ في التصدي السياسي للدعوة الجديدة.

المطلب الثالث:
المقومات الأمنية:

المقصود بالمقومات الأمنية تلك المقومات التي تحفظ للدولة المستبدة وجودها الاستبدادي، وذلك من خلال القضاء على أي محاولة داخلية من شأنها الإصلاح أو

(١١) يقول ابن عاشور في بيان المسرفين: «أئمة القوم وكبراؤهم الذين يغرونهم بعبادة الأصنام ويبقونهم في الضلالة، استغلالاً لجهلهم، وليسخروهم لفائدتهم» (ابن عاشور : ١٤٢٠هـ)، وهذا ما يجعل صالحاً عليه السلام معانياً من شأن أولئك الملأ الذين يحولون دون إيمان الناس، إبقاءً لفسادهم وطغيانهم.

(١٢) اللفت: الانصراف، لفته عن كذا صرفه عنه، (الراغب :٢٠٠٨).

(١٣) وأحياناً نجد أن دور الملأ عند فرعون يتعدى دور الاستشارة إلى دور الإثارة والحكم والأمر والنهي، وهو ما أفصحت عنه آيات سورة الأعراف: { قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ} [١٠٩-١١٢]، وفي الشعراء نجد القرآن يتحدث عن محاورة بين فرعون والملأ: { قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ} [٣٤-٣٧]، وفيه أكبر دليل على أن فرعون والملأ وجهان لعملة واحدة، هي المصلحة المشتركة.

التغيير، ومن خلال تتبع آيات القرآن نجد أنه تحدث عن الجانب الأمني الداخلي، ولم يذكر شيئاً عن الجانب العسكري الخارجي، وذلك يكشف طبيعة الصراع بين الأنبياء وأقوامهم، وسبب ذلك أن الخطورة تكمن في هذا الجانب دون سواه، ونستطيع تلخيص هذا المطلب فيما يلي:

أولاً: إضعاف شأن الدعوة بالقتل والتعذيب واستعباد النساء كما كان سائداً في قوم فرعون: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة:٤٩]، ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف:١٢٧]، وقد وصف القرآن عاداً بأنهم جبارون في بطشهم بالآخرين: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء:١٣٠].

ثانياً: التهديد بالنفي والإكراه على ترك الدين: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ﴾ [الأعراف: ٨٨][١٤]، ومما قالته الأمم عموماً لأنبيائهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم[١٥] مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [إبراهيم:١٣].

ثالثاً: التعبئة العامة وجمع الرجال والجنود لمواجهة أي تهديد ولو كان كلمةً واحدةً، يقول تعالى على لسان قوم فرعون: ﴿قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ [طه:٦٣-٦٤]، ويظهر ذلك في إرسال الرجال لجمع السحرة لمواجهة الحجج والبراهين ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ[١٦] وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ[١٧] ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾[الأعراف:١١١-١١٢]، وفي وصف فرعون وثمود: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾[البروج:١٧-١٨].

رابعاً: استخدام أدوات التخويف والفتنة: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس:٨٣].

خامساً: تقسيم الناس إلى طوائف، بتقوية بعضها واستضعاف بعضها الآخر بقصد الإفساد، كما قال سبحانه عن صنيع فرعون: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص:٤].

سادساً: يتمثل الجانب الأمني أحياناً بوجود عصابات من شأنها الإفساد في الأرض، كما قال تعالى في شأن قوم صالح: ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل:٤٨]، وفي شأن قوم شعيب: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا .. الآية﴾ [الأعراف:٨٦]، وليس من غرض الملأ أن يوقفوا مثل هذا الإفساد؛ لأنه يصب في مصلحتهم في المآل في غالب الأحوال.

سابعاً: التذرع بالحجج والبراهين لقتل المخالفين، فلم يكن القتل مجرداً عن أسلوب الإقناع الذي يرتئيه الحاكم، وأوضح مثال ذكره القرآن قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ

(١٤) بل إن التهديد ينال الباقين على الكفر: {وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ} [الأعراف:٩٠]، وللمتدبر أن يلاحظ تغاير وصف الملأ في الآيتين، ففي الأولى قال: «الذين استكبروا»، وفي الثانية قال: «الذين كفروا»، وكذلك نجد أن المخاطبين لم يتبعوا شعيباً بعد، ولكن توجد منهم هواجس الاتباع، وهو ما يلاحظه الملأ فيستبقوا الحدث بتهديد مباشر (ابن عاشور : ١٤٢٠هـ).

(١٥) وهذا ما أخبر به ورقة نبينا عليه الصلاة والسلام بأن قومه سيخرجونه، حيث قال له: «هذا الناموس الذي نزَّل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أومخرجيَّ هم؟! قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً»، وهو ما حصل له فعلاً عند الهجرة (البخاري : ١٤٠٧هـ) و(مسلم : بدون تاريخ).

(١٦) ورد في معنى «أرجه» قولان، الأول: أخره، والثاني: احبسه (الماوردي : بدون تاريخ)، والراجح الأول بدليل أن لم يكن ثمة حبس وإنما تأجيل الموعد، وهذا ما طلبوه من موسى عليه السلام فحدد لهم يوم الزينة: {.. فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى * قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى} [طه:٥٨-٥٩]، فلو كان هناك حبس لذُكر.

(١٧) أي: الشرطة التي تجمع السحرة (الثعلبي : ١٤٢٢هـ)، ويُستنبط من لفظ «حاشرين» أن الشرطة تجمع الناس وتحشرهم بطريق الإجبار.

أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾ [غافر:٢٦].

المطلب الرابع:

المقومات الاجتماعية:

المقصود بالمقومات الاجتماعية تلك المقومات المتصلة بالقبيلة والعشيرة، التي يكون لها أثر في الصد عن أي وارد جديد، ونستطيع أن نحددها في الأمور الآتية:

أولاً: رفض الأمم السابقة أن يخرج منهم من ينقض وجودهم ويهدد بقاءهم؛ ولذا فإن من أكبر الكبائر التي تزيد في عناد تلك الأمم وتكذيبها أن يكون النبي منهم، ولذا جاء على لسان نوح: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ.. ﴾ [الأعراف:٦٣-٦٤]، وعلى لسان هود: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ..الآية ﴾ [الأعراف:٦٩]، وسبب عجبهم أنه يخرج عن عشيرته وقومه(١٨)، وهذا ما لم تعتده تلك الأمم، بالإضافة إلى أنه يكشف حقيقة أمرهم، ويشكك في صحة اعتقادهم.

ثانياً: تقديم القبيلة والعشيرة على الحق والدين (قطب : ١٤٠٥هـ): ﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ (١٩) لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ ۖ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [هود:٩١-٩٢]، وفي حق صالح: ﴿ قَالُوا۟ تَقَٰسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ [النمل:٤٩]، وهذا دليل على قوة قبيلة صالح عليه السلام في قومه(٢٠)، وهذا ما أشارت إليه الآية الأخرى: ﴿ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ [هود:٦٢]، وسبب تقديم القبيلة أن تلك الحضارات تريد أن تقضي على الدعوة الجديدة دون إحداث خلل اجتماعي، مما قد يؤثر على وجودها.

ثالثاً: تقديم أهل القوة والمنعة والعزة على الضعاف المساكين، ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا (٢١) بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ۖ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾[هود:٢٧]، وفيه دليل على أن تلك النهضات قامت على ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، والحاكم الحقيقي هي قوة العصبية.

المطلب الخامس:

المقومات المادية:

وتتمثل المقومات المادية في مجموعة من الجوانب:

الجانب الأول: قوة الأبدان وعظمها، وهذا ما امتن به هود عليه السلام على عاد: ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ.. ﴾ [الأعراف:٦٩]، وفي آية أخرى: ﴿ ..وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ [هود:٥٢]، وفي سبأ: ﴿ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ .. ﴾(٢٢) [النمل:٣٣]، وفي حق

(١٨) الأصل في تلك الأقوام أن لا تتعجب، فما داموا «يعرفونه ويعرفون نسبه؛ وذلك لأن كونه منهم يزيل التعجب» (الخازن : ١٣٩٩هـ)، فالداعي للتعجب أنه يدعو لما يقض مضاجعهم من حيث إنه منهم، ويُزيل باطلهم، وهذا ما يأبونه ويرفضونه من ابن القبيلة، وهنا منبع عجبهم، وهو ما حصل لنبينا عليه الصلاة والسلام مع قومه، فقال تعالى في وصف مشركي قريش: {بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ} [ق:٢]، وقال: {وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ} [ص:٤].

(١٩) «الرَّهْط: جماعةُ الرجل، وقيل: الرَّهْط والرَّاهط لِما دون العشرة من الرجال، ولا يقع الرَّهْطُ والعَصَب والنَّفَر إلا على الرجال» (السمين الحلبي : ١٤٠٨هـ)، والذي يظهر أن هؤلاء الرهط كان لهم مكانة وحظوة في قومهم كما كان لأبي طالب مكانة في قومه.

(٢٠) يقول الشنقيطي: «ففي الآية دليل على أنهم لا قدرة لهم على أن يفعلوا السوء بصالح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام إلا في حال الخفاء، وأنهم لو فعلوا به ذلك خفاءً وسرقةً لكانوا يحلفون لأوليائه الذين هم عصبته أنهم ما فعلوا به سوءاً، ولا شهدوا ذلك ولا حضروه خوفاً من عصبته؛ فهو عزيز الجانب بسبب عصبته الكفار» (الشنقيطي : ١٤١٥هـ)، وهذا ما حصل لنبينا عليه الصلاة والسلام عندما أرادت قريش قتله ليلة الهجرة، وكأن الحدث واحد (ابن هشام : ١٤١١هـ)، وقد وقف أبو طالب مناصراً له وقال في ذلك أبياتاً:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم ... حتى أوسد في التراب دفيناً
فامضي لأمرك ما عليك غضاضة ... أبشر وقر بذاك منك عيوناً
ودعوتني وزعمت أنك ناصحي ... فلقد صدقت وكنت قبل أميناً

(البيهقي : ١٤٠٨هـ).

(٢١) هذا شأن أتباع الرسل، وهو ما أفادته تلك المحاورة بين هرقل وأبي سفيان، جاء في البخاري: «..وسألتك عن أتباعه: أضعفاؤهم أم أشرافهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم، وهم أتباع الرسل» (البخاري : ١٤٠٧هـ).

(٢٢) «أرادوا بالقوة: قوة الأجساد والآلات» (ابن عجيبة : ١٤٢٣هـ).

بقية الأمم: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ [فاطر: ٤٤].

الجانب الثاني: البناء العمراني، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ[٢٣] ﴾ [الشعراء: ١٢٨-١٢٩]

وفي ثمود: ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾[الأعراف: ٧٤]، وقال: ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾[٢٥] [الشعراء: ١٤٩]، وفي حق بقية الأمم: ﴿ ..كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [الروم: ٩].

الجانب الثالث: الرخاء الاقتصادي، فالذي يدقق النظر في حديث القرآن عن الأمم المستبدة، يجد أنها أمم قد أصابها من الرخاء الاقتصادي الشيء الكثير، وفيه دليل على أن تلك الأمم إنما تمسكت بهذه الدنيا لما هي عليه من الرخاء الاقتصادي، مما أدى بها إلى الاستبداد والتمسك بمقاليد الأمور، فقال تعالى في عاد: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾[الشعراء: ١٣٢-١٣٤]، وقال في ثمود: ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟[٢٦] فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ [هود: ٦٨]، وقال: ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ[٢٧] ﴾ [الشعراء: ١٤٦-١٤٨]، وفي مدين: ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٩٢]، وقال: ﴿ ..وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ[٢٨] وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٦]، وعن فرعون: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾[يونس: ٨٨]، وفي دعاء موسى عليه السلام على فرعون وملئه دليل على أن ما هم فيه من الرخاء سبب رئيس من أسباب الغواية والضلالة والتصدي للدين الحق، وقال تعالى عن بقية الأقوام: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا[٢٩] ﴾ [مريم: ٧٤]، وقال: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [غافر: ٨٢].

وتمثل المقومات المادية ثقة الحضارات بنفسها، وأنها قادرة على مقاومة أي تحدٍ كان، وهو ما يعطينا التأني في مخاطبة الحضارات المستعلية في الأرض، ويرسم

(٢٣) الريع: كل مكان مشرف من الأرض مرتفع، أو طريق أو واد، والآية هي البنيان والعلم الواضح، والصواب من القول في معنى المصانع أن يقال: إن المصانع جمع مصنعة، والعرب تسمي كل بناء مصنعة، وجائز أن يكون ذلك البناء كان قصورًا وحصوناً مشيدة، وجائز أن يكون كان مآخذ للماء، ولا خبر يقطع العذر بأيّ ذلك كان، ولا هو مما يدرك من جهة العقل، فالصواب أن يقال فيه، ما قال الله: إنهم كانوا يتخذون مصانع» (الطبري : ١٤٢٠هـ).

(٢٤) «مأخوذة من الفراهة، وهي جودة منظر الشيء وخبرته وقوته وكماله في نوعه، فمعنى الآية: كيسين متهممين قاله ابن عباس، وقال مجاهد: شرهين، وقال ابن زيد: أقوياء، وقال أبو عمرو بن العلاء: آشرين بطرين» (ابن عطية : ١٤١٣هـ).

(٢٥) يقول أبو حيان: «وظاهر هذه الآيات — آيات الشعراء – أن الغالب على قوم هود؛ اللذات الخيالية من طلب الاستعلاء والبقاء والتفرد والتجبر، وعلى قوم صالح؛ اللذات الحسية من المأكول والمشروب والمساكن الطيبة الحصينة» (أبو حيان : ١٤٢٢هـ)، والدليل على ذلك كلام الله تعالى فقال في عاد: {فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً..} [فصلت:١٥]، وقال في حق ثمود: {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى..} [فصلت:١٧].

(٢٦) يقول ابن عطية: «وغنيت في المكان، إنما يقال في الإقامة التي هي مقترنة بتنعم وعيش مرض، هذا الذي استقريت من الأشعار التي ذكرت العرب فيها هذه اللفظة» (ابن عطية : ١٤١٣هـ).

(٢٧) «الهضيم: الطلع قبل أن تنشق عنه القشور وتنفتح، يريد: أنه منضم مكتنز، ومنه قيل: أهضم الكشحين، إذا كان منضمهما» (ابن قتيبة : ١٣٩٨هـ).

(٢٨) جاء في زاد المسير: «جائز أن يكون المعنى جعلكم أغنياء بعد أن كنتم فقراء، وجائز أن يكون كثر عددكم بعد أن كنتم قليلاً، وجائز أن يكونوا غير ذوي مقدرة وأقدار فكثرهم» (ابن الجوزي : ١٤٠٤هـ).

(٢٩) «أثاثاً هو متاع البيت أو ما جد من الفرش، ورئياً منظراً وهيئةً» (النسفي : بدون تاريخ).

لنا المنهج القرآني في التفاعل الحضاري والدعوي مع من يمتلك زمام الأمور، بحكمة القرآن، وبصبر العقلاء، وهو ما يبعدنا في الوقت نفسه عن سلوك الأسلوب المادي؛ لأنه لن ينفعنا إلا في القضاء على بقايا الخير في هذه الحياة.

المطلب السادس:

المقومات الأخلاقية:

هي الأخلاق التي اكتسبتها الأمم السابقة في مراس التصدي لدين الله تعالى، وهي كما يلي:

أولاً: أخلاق تغذي الجانب السلوكي: كالسخرية والاستهزاء، ومثاله ما صنعه قوم نوح عليه السلام: ﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ [هود:٣٨]، وكخلق التحدي الفعلي ومثاله: ﴿ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ(٣٠) ﴾ [الأعراف:٧٧].

ثانياً: أخلاق تغذي الجانب النفسي: ومن أعظمها الكبر، فجاء في عاد: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [فصلت:١٥]، وفي ثمود: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ ﴾ [الأعراف:٧٥]، وفي قوم شعيب: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ ﴾[الأعراف:٨٨]، وفي فرعون: ﴿ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف:١٣٣].

ثالثاً: أخلاق تغذي الجانب العقلي والقولي: وعلى رأسها المجادلة بالباطل، فقال تعالى في حق عاد: ﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾ [الأعراف:٧١]، وقال في حق الأمم الكافرة: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [غافر:٥]، ومنها المعاندة بالباطل: ﴿ قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾[هود:٥٣]، ﴿ قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴾ [الشعراء:١٣٦].

ونستطيع الإفادة من هذه الأخلاق بما يخدمنا في رؤية أخلاق الآخر، عند امتلاكه لأسباب القوة والاستعلاء في الأرض، فيقودنا لحسن التعاطي مع الحضارات بقدم الواثق لا بقدم المقلد، وبرؤية الحكيم الخبير، لا بعمى المتهور الأثيم، وهو ما يريده القرآن منَّا، اعتباراً بما كان عليه السابقون، ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف:١١١].

* * *

الخاتمة

نستطيع أن نسجل مجموعة من الاستنباطات القرآنية حول منهج الأمم السابقة من دعوة الأنبياء والمرسلين بشكل موجز:

أولاً: المقصود بالأمم السابقة هي تلك الأمم التي ذكرها القرآن الكريم من غير الأمة المهدية.

ثانياً: نتج عن الأمم السابقة ثلاثة مناهج هي؛ المنهج البدائي، والشوري، والاستبدادي.

ثالثاً: مثَّل المنهج البدائي سطحية التفكير وعقم الفهم، وعنجهية الرد، وكان طريقه الاندثار.

رابعاً: وجدنا أن المنهج الشوري قد أثمر صورتين من صور التفاعل الحضاري، وهي صورة التعايش السلمي كما مثلها يوسف عليه السلام، وصورة الدخول في الدين الحق كما مثلتها ملكة سبأ.

خامساً: كان تركيز البيان القرآني على الشكل الاستبدادي، الذي تصلب في الرد على الدعوة النبوية، تمثل في فرعون فعاد فثمود فقوم نوح من حيث تركيز البيان القرآني، وقد كانوا أئمة الاستبداد في التصدي

(٣٠) «فعقروا الناقة أي نحروها.. أصل العقر عند العرب قطع عرقوب البعير، ثم استعمل في النحر؛ لأن ناحر البعير يعقره ثم ينحره .. وعتوا عن أمر ربهم، أي: استكبروا عن امتثاله» (الآلوسي : ١٤١٥هـ).

لدين الله تعالى.

سادساً: ارتكزت الأمم السابقة على مقومات بسط القرآن في بيانها، تمثلت في مقومات عقدية، وسياسية، وأمنية، واجتماعية، ومادية، وأخلاقية، وكان مجموع هذه المقومات يمثل حس الحذر واليقظة لدى الأمم السابقة من أي خطر يهددها.

سابعاً: مثلت مقومات الأمم السابقة الوجود الحضاري، وكانت في معظمها تدور حول استبداد الإنسان لأخيه الإنسان، ورفضه الوصول إلى أي حل ينتقص من عنجهيته وغطرسته وتكبره فيما يملك، وهذه المقومات كانت طريق النهاية والانتحار لتلك الأمم التي رفضت منهج الحق والهدى والخير، مما جعلها عبرة لمن ألقى السمع وهو شهيد، وأخيراً أسأل الله سبحانه وتعالى أن ينفعنا بالقرآن العظيم، وأن يجعله إماماً لنا في نهضتنا التي نأمل، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

قائمة المراجع

١- الآلوسي، محمود الآلوسي أبو الفضل، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الطبعة الأولى، بيروت – لبنان، دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ١٩٩٤م.

٢- الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد، تهذيب اللغة، الطبعة الأولى، بيروت – لبنان، دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠١م، تحقيق: محمد عوض مرعب.

٣- البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، الجامع الصحيح المختصر، الطبعة الثالثة، بيروت – لبنان، دار ابن كثير، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا.

٤- البقاعي، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، بدون طبعة، بيروت – لبنان، دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي.

٥- البيهقي، أبو الحسن عبيد الله بن محمد بن أحمد، دلائل النبوة، الطبعة الأولى، بيروت – لبنان، دار الكتب العلمية ودار الريان للتراث، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م، تحقيق: د.عبد المعطي قلعجي.

٦- الثعلبي، أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري، الكشف والبيان، الطبعة الأولى، بيروت – لبنان، دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٢هـ ٢٠٠٢م، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور.

٧- ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة، بيروت – لبنان، ١٤٠٤هـ.

٨- الجوهري، إسماعيل بن حماد، تاج اللغة وصحاح العربية، الطبعة الرابعة، بيروت – لبنان، دار العلم للملايين، ١٩٩٠م.

٩- أبو حيان، محمد بن يوسف الأندلسي، تفسير البحر المحيط، الطبعة الأولى، بيروت – لبنان، دار الكتب العلمية، ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض.

١٠- الخازن، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي، لباب التأويل في معاني التنزيل، بدون طبعة، بيروت - لبنان، دار الفكر، ١٣٩٩هـ١٩٧٩م.

١١- الرازي، فخر الدين محمد بن عمر التميمي، مفاتيح الغيب، الطبعة الأولى، بيروت – لبنان، دار الكتب العلمية، ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م.

١٢- الراغب، الراغب الأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن، بيروت – لبنان، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٨م، تحقيق: إبراهيم شمس الدين.

١٣- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر، أساس البلاغة، بدون طبعة، بيروت – لبنان، دار المعرفة، تحقيق: عبد الرحيم محمود.

١٤- أبو السعود، محمد بن محمد العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، بدون طبعة، بيروت – لبنان، دار إحياء التراث العربي، ١٣٢٧هـ.

١٥- السمرقندي، نصر بن محمد بن إبراهيم، بحر العلوم، بدون طبعة، بيروت – لبنان، دار الفكر، تحقيق: د.محمود مطرجي.

١٦- السمين الحلبي، أحمد بن يوسف، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، الطبعة الأولى، دمشق – سوريا، دار القلم، ١٤٠٨هـ١٩٨٧م، تحقيق: د.أحمد محمد الخراط.

١٧- ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي، المخصص، الطبعة الأولى، بيروت — لبنان، دار إحياء التراث العربي، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م، تحقيق: خليل إبراهيم جفال.

١٨- السيوطي، عبد الرحمن بن الكمال، الدر المنثور في التفسير المأثور، بدون طبعة، بيروت - لبنان، دار الفكر، ١٩٩٣م.

١٩- الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، بدون طبعة، بيروت — لبنان، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.

٢٠- الصاحب، أبو القاسم إسماعيل ابن عباد بن العباس بن أحمد بن إدريس الطالقاني، المحيط في اللغة، الطبعة الأولى، بيروت — لبنان، عالم الكتب، ١٤١٤هـ -١٩٩٤م، تحقيق: الشيخ محمد حسن آل ياسين.

٢١- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، جامع البيان في تأويل القرآن، الطبعة الأولى، بيروت — لبنان، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م، تحقيق: أحمد محمد شاكر.

٢٢- ابن عادل، أبو حفص عمر بن علي بن عادل الدمشقي الحنبلي، اللباب في علوم الكتاب، الطبعة الأولى، بيروت — لبنان، دار الكتب العلمية، ١٤١٩هـ -١٩٩٨م، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود.

٢٣- ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن عاشور، التحرير والتنوير، الطبعة الأولى، بيروت — لبنان، مؤسسة التاريخ العربي، ١٤٢٠هـ٢٠٠٠م.

٢٤- ابن عجيبة، أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الإدريسي الشاذلي الفاسي، البحر المديد، الطبعة الثانية، بيروت — لبنان، دار الكتب العلمية، ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م.

٢٥- ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، الطبعة الأولى، بيروت — لبنان، دار الكتب العلمية، ١٤١٣هـ ١٩٩٣م، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد.

٢٦- الغزالي، محمد الغزالي، نحو تفسير موضوعي، الطبعة الخامسة، القاهرة — مصر، دار الشروق، ١٤٢٣هـ٢٠٠٢م.

٢٧- ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، الطبعة الثانية، بيروت — لبنان، دار الفكر، ١٤١٨هـ ١٩٩٨م.

٢٨- الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد، كتاب العين، بدون طبعة، بيروت — لبنان، دار ومكتبة الهلال، تحقيق: د.مهدي المخزومي ود.إبراهيم السامرائي.

٢٩- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، غريب القرآن، بدون طبعة، بيروت — لبنان، دار الكتب العلمية، ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م، تحقيق: أحمد صقر.

٣٠- قطب، سيد قطب، في ظلال القرآن، الطبعة الحادية عشرة الشرعية، بيروت — لبنان، دار الشروق، ١٤٠٥هـ١٩٨٥م.

٣١- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، الطبعة الجديدة، بيروت — لبنان، دار الفكر، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م، تحقيق: محمود حسن.

٣٢- الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري، النكت والعيون، بدون طبعة، بيروت — لبنان، دار الكتب العلمية، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم.

٣٣- رشيد، محمد رشيد، تفسير القرآن الحكيم المعروف بتفسير المنار، دار المنار، ط٤، ١٣٧٣هـ.

٣٤- مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، بدون طبعة، بيروت — لبنان، دار إحياء التراث العربي، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي.

٣٥- النسفي، عبد الله بن أحمد، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، بدون طبعة، القاهرة — مصر، دار إحياء الكتب العربية.

٣٦- النيسابوري، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان، الطبعة الأولى، بيروت — لبنان، دار الكتب

العلمية، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، تحقيق: الشيخ زكريا عميران.

٣٧- ابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري أبو محمد، السيرة النبوية، بدون طبعة، بيروت – لبنان، دار الجيل، ١٤١١هـ، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد.

The previous nations and their attitude regarding call of the prophets and messengers.

Al-M.M.Abdel-Fattah

Islamic Culture - Faculty of Education - Jazan University

Abstract

This research is discussing an important issue that relating to the wisdom stories of Quran، its mainly about the previous nations and their attitude regarding call of the prophets and messengers، and foundations of their situations، through this important topic which raises the reader and stops him on the evident facts of Quran، the aim of the research appears as deriving from the curriculum of Quran in dealing with nations، and in discuss the bases of the jurisprudences of priorities، jurisprudences of balances ، and the jurisprudence of current stage، hoping this effort will be an aide to access the path of Islam which is featured with Moderation and tolerance

The researcher concludes that previous nations had stood three positions (attitudes) regarding the call of the prophets and messengers: the primitive position، the position of consultation، and the authoritarian position، that all was explained within the first section، while the researcher discusses in the second chapter the elements adopted by the previous nations in standing up to the call of Prophets generally، This came in six demands، namely: ideological، political، social، security and physical and moral elements.

It was then the conclusion of the research which gives guidelines for how to deal with who stands by such attitudes in the face of the Islamic call، and also gives priority to the facts of Holy Quran's history in order to strengthen the Islamic pace and contributes in abolition the lays and suspicions about what afflicts the Islamic history of prophets and messengers.

The research is also to Reveal morals of prophets، which should represent morals and attitude of believers nation as the Almighty Creator wants it to be،
We ask Him to bless us with understanding and success، and God is to be determines before and after.

Keywords: Interpretation، Stories of Koran، Prophets، Previous nations، Statement of Quran.